مرضه ووفاته

اختلاف روايات مرض أبي بكر ووفاته

اختلفت روايات الصحابة في كيفية موت أبي بكر الصديق والعجيب أن الحاكم هو الذي أخرج روايات موت أبي بكر كلها .

فعن ابن عمر قال : كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله ﷺ كمد فما زال جسمه يجري (يَنْقُص) حتى مات " [رواه الحاكم].

وعن ابن شهاب أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت لأبي بكر فقال الحارث لأبي بكر : ارفع يدك يا خليفة رسول الله والله إن فيها لسم سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة " [الحاكم وابن سعد]

عن الشعبي قال : " ماذا نتوقَّع من هذه الدنيا الدَّنِيَّة وقد سُمَّ رسولُ الله ﷺ أبو بكر ؟ " [الحاكم]

وعن السيدة عائشة قالت : كان أول بدء مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوماً بارداً فَحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة "

[الحاكم والواقدي]

الجمع بين روايات مرض وموت أبي بكر

وتأثُّر أبو بكر بموت النبي ﷺ نفسيّاً وبدنيّاً كما ذكر ابن عمر أمر طبيعي مشاهد في فراق الأحبة فكثير من الأحباء يموت كمداً بموت حبيبه أو فقده وقد كُفَّ بصر يعقوب وكاد يهلك لفقد ابنه يوسف .

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ* قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٤ ، ٨٥]

وعن ابن عباس " أن النبي ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : اللهم إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بى ما بدا لكم. فنظروا فإذا امرأة طويلة أدماء .قالت نعم فديتك. فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه بذلك فقال رسول الله ﷺ : أما كان فيكم رجل رحيم ؟ "

[رواه النسائي والبيهقى والطبراني]

وقد توفيت السيدة فاطمة بعد النبي ﷺ بأقل من ستة أشهر . وتذكر مصادر السنّة التاريخية أنّ السيدة فاطمة تُوفِّيت نتيجة وفاة والدها الحبيب ؛ فقد نسيت الفرح والضحك، وبقيت في بيتها تبكي أباها ليلاً ونهاراً حتى أن فارقت الحياة .

أما رواية موت أبي بكر مسموماً وهي أقوى الروايات سنداً فهي غير مستبعدة فلا يسلم الحاكم الصالح من حسد وحقد وبغض ممن الظالمين والطامعين فيما ليس لهم بحق ، وقد قُتِل عمر أشهر حاكم عادل وكذلك عمر بن العزيز كذلك قتل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، والنبي ﷺ نفسه لم يسلم من محاولة قتله في مكة من الذين كفروا ﴿وَإِذْ

يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] وفي المدينة قد تآمر يهود بني النضير أن يطرحوا عليه حَجَراً، فجاء جبريل فأخبره بما همُّوا به، فقام بمن معه، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة : ١١] (١)

وكرر اليهود المحاولة محاولة قتل النبي ﷺ مرة ثانية لكن هذه المرة ليس بإلقاء حجر عليه إنما بالسم " قالت السيدة عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : " يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري(عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان) من ذلك السم " .

(وطعام خيبر) هو اللقمة التي أكلها من الشاة التي سمتها اليهودية وقدمتها إليه في غزوة خيبر فأكل منها لقمة وقال إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة وأكل معه منها بشر فمات " (٢)

وهاتان الروايتان في موت أبي بكر – حزناً أو بالسم – ليستا متعارضتين فمن المعلوم أن الحزن والكمد مما يضعف مقاومة الجسم للأمراض والآفات التي تصيبه ، وإن كان أبو بكر قد سمَّ فإن حزنه على النبي ﷺ وكرهه للحياة بعده قد أضعفا مقاومة جسمه على التعافي منه.

أما رواية موت أبي بكر بسبب الحُمَّى التي أصيب بها نتيجة تعرضه للهواء البارد بعد أن اغتسل فهي لا تتعارض مع الروايتين الأخريين كذلك فإذا كان حزنه على النبي ﷺ وعدم الرغبة في الحياة بعده قد

(١) الإمام جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور." في تفسير الآية .
(٢) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٥ حرف الميم .

أضعفا مقاومته فإن السم قد أثَّر فيه تأثيراً كبيراً ويأتي التعرض للبرد الشديد بعد الاغتسال ليجهز على البدن الحزين العليل .

أخرج أحمد عن السيدة عائشة قالت : إن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم الاثنين قال : فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي لغد فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها من رسول الله ﷺ "

هل مات أبو بكر شهيداً ؟

هل شاءت حكمة الله تعالى أن ينعم على الصديق بمنزلة الشهادة إلى جانب منزلة الصديقية ليجمع بين المنزلتين ؟ كما تمنَّى النبي ﷺ أن يجمع بين النبوة والشهادة في سبيل الله .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ " فَكَانَ أبو هُرَيْرَةَ يَقُولُهُنَّ ثَلَاثًا أَشْهَدُ بِاللَّهِ. " [صحيح البخاري]

فأبو بكر قد تمَّ سَمُّه غِيلة وهذه أقوى روايات موته سَنَداً ، ومن المؤكد أن من دسَّ له السم إنما هو عدو لله ورسوله يريد أن يزلزل دولة الإسلام بقتل خليفة رسول الله وتصارع الناس على الخلافة من بعده ، وعلى هذا يكون أبو بكر قد استشهد لأنه قتل وهو يقيم دولة الإسلام ويدافع عنها ضد أعدائها ، وكذلك لأن من مات بالسم ممن عدَّهم النبي ﷺ من الشهداء فهو يُعَدُّ مَبْطُوناً فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : "الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ الْمَطْعُونُ وَالْمَبْطُونُ وَالْغَرِقُ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" [رواه البخاري] ويعرِّف العلماء الْمَبْطُونُ بأنه : هو الذي يشتكي بطنه من إسهال، أو استسقاء أو نحو ذلك. يقال، بُطِن إذا اشتكى بطنه، فهو مبطون، أو من مات بقرحة المعدة، أو بالسل، أو بأزمة قلبية، أو بأي داء في البطن. فعن رسول الله قال: "مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ

لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ" [رواه الترمذي] ويقول الأطباء عن أعراض التسمم " تختلف أعراض التسمم الغذائي عن أعراض باقي أنواع التسمم حيث تتركز على أعراض الجهاز الهضمي كالقيء وألم البطن والإسهال " وهذه من أعراض الْمَبْطُونُ .

وإذا مات أبو بكر محموماً كما أخبرت السيدة عائشة أنه أصيب بالحمى بعد أن اغتسل وخرج في البرد الشديد ، فما أخرجه بعد أن اغتسل إلا الصلاة أو قضاء أمر من أمور المسلمين ، فما أخرج الصديق في البرد الشديد بعد اغتساله لهو أو لعب فما كان من أصحابهما في الظروف العادية فما بالك في البرد الشديد ؛ لذا نرجِّح أنه جمع بين منزلتي الصديقية والشهادة .

وصية أبي بكر لعمر بالخلافة

لم يشأ أبو بكر أن يترك الأمة – وقد شعر بدنو أجله – دون أن يرشح لها خليفة من بعده فقد كانت الفتنة ما زالت تطل برأسها وارتداد كثير من العرب عن الإسلام وحروب الردة لم يمض عليهما إلا قليل وما زالت آثارهما باقية ، ومع ذلك لم يشأ أبو بكر – كسائر الملوك – أن يجعلها في أهله أو حتى في قبيلته إنما جعلها فيمن هو أهل لها ، ولم يكتب هذا إلا بعد أن استشار أهل الحل والعقد من كبار الصحابة المعروف عنهم حسن الرأي وسياسة الأمور من المهاجرين والأنصار .

أخرج الواقدي أن أبا بكر لما ثقل (عليه المرض) دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب ؟ فقال : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني فقال أبو بكر : وإنْ (كان الأمر كذلك لكن أخبرني عما سألتك) فقال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرني عن عمر ؟ فقال : أنت أخبرنا

به فقال : على ذلك (قل رأيك أنت) فقال : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله .

وشاور معهما (أي مع عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان) سعيد بن زيد وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك يرضى للرضا ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه .

ودخل عليه بعض الصحابة فقال له قائل منهم : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر : بالله تخوفني ؟ أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك أبلغ عني ما قلت من وراءك .

ثم دعا عثمان فقال : اكتب " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه وإن بدَّل فلكلٍّ امرئ ما اكتسب والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "

ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه بما أوصاه ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه وقال : اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد

حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته " .

وقفة مع وصية أبي بكر لعمر بالخلافة

قلنا أن أبا بكر كان متأسياً بالنبي سائراً على هديه لا يحيد عن طريقه ، ومع ذلك لم يمنعه ذلك من الاجتهاد فيما لا نص فيه لصالح الأمة ، وقلنا إنه أذكى الصحابة وأرجحهم رأياً ، وتتجلَّى هذه السمات التي اتسم بها أبو بكر في موقف الوصية لعمر أسمى تجلٍّ فبرغم أن النبي لم يوص بالخلافة لأحد من بعده ، ومع ذلك أوصى أبو بكر وهو أشد الناس تأسياً بالرسول لما علم من أن النبي لم يفعل ذلك حتى لا يكون تشريعاً دينياً يستغله الحكام لتوريث الحكم لأبنائهم وذويهم ، أما عندما يفعله هو فيكون اجتهاداً بشرياً وليس تشريعاً دينياً .

– لم يستبد أبو بكر بالرأي في اختيار عمر إنما استشار أهل الرأي من المهاجرين والأنصار فأقروه وأيدوه في ذلك .

– كانت توصيته لعمر مجرد ترشيح أو توصيلة وليست إلزاماً وجبراً على قبولها ، كما أنها لا تحجر على حرية الناس في اختيار من يحكمهم .

أخرج ابن عساكر عن يسار بن حمزة قال : لما ثقل أبو بكر أشرف على الناس من كوة فقال : أيها الناس إني قد عهدت عهداً أفترضون به ؟ فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله فقام على فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر قال : فإنه عمر" .

– كانت توصيته لعمر كانت مشروطة بإطاعة عمر الله ورسوله عملاً بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] فلم يقل الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر إنما عطف طاعة أولي الأمر على طاعة الله ورسوله أي أطيعوا أزلي الأمر ما أطاعوا الله ورسوله فإن عصوا الله ورسوله فلا طاعة لهم عليكم وهذا ما ذكره أبو بكر في أول خطبة له بعد مبايعته للخلافة .

وقد عرض عمر نفسه كمرشح للخلافة في أول خطبة له فأقر الناس بمحض إرادتهم خلافته .

ولقد صدقت خلافة عمر اجتهاد أبو بكر في التوصية بالخلافة له فكان حكمه مضرب المثل في العدل والزهد وطاعة الله ورسوله وعمل بكتاب الله وسنة رسوله واجتهاد الرأي حيث يتطلب الأمر .

أخرج ابن سعد والحاكم عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين استخلف عمر ، وصاحبة موسى حين قالت : استأجره ، والعزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته : أكرمي مثواه . "

وصايا أبي بكر لأهله قبل موته

لقد ضرب أبو بكر المثل العظيم في العدل في إسلامه وصحبته للنبي وفي حكمه وفي وفاته كذلك .

وأخرج مالك عن السيدة عائشة أن أبا بكر نحلها (أعطاها) جداد عشرين وسقاً من ماله بالغابة فلما حضرته الوفاة قال : يا بنية والله ما من الناس أحب إلي غنى منك ولا أعز علي فقرا بعدي منك وإني كنت نحلتك جداد عشرين وسقاً فلو كنت جددته واحترزته كان لك وإنما هو اليوم مال وإرث وإنما هو أخواك وأختاك فأقسموه على كتاب الله فقالت: يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته إنما هي أسماء فمن الأخرى ؟ قال

: ذو بطن ابنة خارجة أراها جارية " وخارجة هذه هي زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجية الأنصارية أم ابنته أم كلثوم التي كانت لا تزال حاملاً بها عند وفاة أبي بكر .

وأخرج هذا الحديث ابن سعد وقال في آخره : ذات بطن ابنة خارجة قد ألقي في روعي أنها جارية فاستوصي بها خيرا فولدت أم كلثوم " .

فأبو بكر لا ينسى أن يوصى بأن يأخذ الجنين الذي كانت زوجته خارجة حاملة فيه في الميراث حسب كتاب الله .

وأخرج الطبراني في مسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال : لما احتضر أبو بكر قال : يا عائشة انظري اللقحة التي كنا نشرب من لبنها و الجفنة التي كنا نصطبغ فيها و القطيفة التي كنا نلبسها فإنا كن ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين فإذا مت فارديه إلى عمر فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر ! لقد أتعبت من جاء بعدك ".

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص قال : قال أبو بكر ـ لما اختضر ـ لعائشة رضي الله عنها : يا بنية إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر" .

هذا هو العدل في أروع صوره وهذا هو الحاكم العادل في أسمى نزاهته وشرفه وتقواه وعفته وطهارة قلبه ويده .

وأخرج ابن سعد عن عروة أن أبا بكر أوصى بخمس ماله وقال : آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين " .

وأخرج ابن سعد و غيره عن السيدة عائشة قالت : لما ثقل أبو بكر تمثلت بهذا البيت

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهِ الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه و قال : ليس كذلك ولك قولي : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩] انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت " .

وأخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب أن عمر صلى على أبي بكر بين القبر والمنبر وكبر عليه أربعاً "

وأخرج ابن سعد عن عروة والقاسم بن محمد أن أبا بكر أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ فلما توفي حفر له وجعل رأسه عند كتف رسول الله ﷺ وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ .

***